

السوريالية

لقد قامت السوريالية على إعادة النظر جذريا في الأسس التي بني عليها صرح الحضارة الغربية بدءًا من تراث الفلسفة الإغريقية لاسيما في مساره العقلاني سقراط - أفلاطون - أرسطو. وقد ساعدت ظروف تاريخية حاسمة على تسريع وتيرة هذه المراجعة، إذ ولدت الحرب العالمية الأولى المناخ الثقافي الملائم الذي غذى نزعة التشكيك والرفض.

وقد تأسست الحركة السوريالية في باريس سنة 1920 على يد أربعة شعراء كانوا حينها شبابًا مغمورين : تريستان تزارا، أندريه بریتون، لويس أراغون، فيليب سوبو، أعلنوا في بيانهم التأسيسي ازدياد الأعراف والتقاليد والأديان والمثل والأخلاق المألوفة، وأعلوا في المقابل قيم الحرية والحياة والمتعة والرغبة، وفي عام 1924 انضم إليهم العديد من الشعراء والفنانين التشكيليين من فرنسا وألمانيا وإسبانيا وإيطاليا.

"لقد انفجرت جميع التناقضات التي ظلت تتفاعل طوال القرن التاسع عشر، وكان انفجارها مدّويا، وثبت أن القيم التي يتشدد بها أعمدة المجتمع كذبٌ كلّها، فكان الكفر بالعقل والمنطق، والنظم الاجتماعية والتقاليد والأخلاق، يعني في نظر السرياليين، البحث عن عالم جديد أكثر إنسانية، فأخذوا يفتشون عن مادة هذا العالم في كلّ ما رفضه النظام القائم، وأودعه سجن العقل الباطن"¹.

ومدار الأمر في هذا هو تقديس الحرية باعتبارها شرطا وجوديا، وتحديد ذلك النوع من الحرية المطلقة التي لا تحدّها قيود أو شرائع ولا تعترف بفكرة الخطيئة أو المحرّم، وما دام الأمر كذلك فقد أعطوا لأنفسهم الحق في أن يكونوا مصدر المعايير بدل أن يخضعوا للمعايير الخارج إنسانية وذات الأصل الميتافيزيقي أو الغيبي، ونادوا بأن يكون الإنسان مصدر القيم، لا الآلهة ولا الطبيعة، وبذلك يكون الإنسان موجودا بحق.

وهذا هو تفسير السرياليين "لإلغاء الواقع الخارجي، وإقامة الواقع الداخلي على أنقاضه، وقد أدى إلى عنايتهم بعالم اللاوعي وتهويمات الأحلام وهلوسات المجانين وشطحات الصوفية، والتوجه من المعلوم إلى المجهول، والعزوف عن الواقع، وبرزت إلى

السطح قضايا الاغتراب والوحدة والألم والضياع والفراغ"².

والهدف المعلن للسوريالية هو الهدم أي تجاوز العادي والمألوف، فالسوريالي يسعى للوصول إلى كماله، ولكن بمجرد الوصول يغدو الكمال في حد ذاته بحاجة إلى أن يهدم ليقام على أنقاضه سعي جديد.

سعى السورياليون إلى تجاوز الواقع المباشر ليصلوا إلى سحر العالم، وإلى إطلاق المشاعر المكبوتة، وإلى استخدام غرائبي غير مألوف للغة، آملين - كما حلم الخيميائيون القدامى قبلهم - بالقبض على الحجر الفلسفي الذي يحول الأشياء من طبيعة لأخرى، وفي هذا النزوع لا بد أنهم قد تأثروا بالتيارات السرية الباطنية، ونظرتها القائمة على ما يشبه السحر والتنجيم، أي إنّ المعرفة الحقة لا بد أن تسترشد بالحدس والإحساس الخاص بالأشياء والوقائع، وبما وراء العقل والمنطق.

"ينتمي السورياليون إلى هذا الاتجاه الفكري الفلسفي اللاعقلاني، اتجاه الفيثاغوريين والأديان السرية، بحثا عن ينابيع السر فيما وراء مقولات المنطق، من أجل العثور على الطاقة في حالتها البدئية، وعلى الكلام الحي، كلام الأسطورة"³.

المنظر الأساسي لهذه الحركة هو الشاعر الفرنسي أندري بریتون الذي يلخص السوريالية بأنها فكر اللامعقول، وأنها لذلك لا تؤمن بوجود حكمة عليا أو نسق منظم، ولا بوجود إله ما في مكان ما في هذا الكون، على الرغم من اعتقاده الشخصي بوجود سر ما، يسميه النقطة العليا، أي تلك النقطة التي تلتقي فيها المادة والروح، وتنحل المتناقضات الثنائية المتوهمة في وحدة تامة، معتبرا أنّ الخيال والأحلام والاستسلام لدفق اللاشعور هي وحدها الوسائل الكفيلة بتقريبنا من هذه النقطة.

لذا نراه في منهجه الذي يسطره للمعرفة يسلك مسلكا يخالف فيه كل المناهج المعرفية التي عرفها ومارسها الغرب، ويستند إلى أعلام عرفوا بتصديهم الفلسفي للحوار السقراطي والمنطق الأرسطي ولسلطة العقل عموما: هيراقليطس، آييلار، اكهارت، ريتز، روسو، سويفت، المركيز دو ساد، نيتشه .. كما أنه يعلن تأثره بثقافات هامشية أعلنت التمرد والخلاف مع المركزية الأوروبية كالثقافة الهندية، والثقافة الصينية، والآداب الشرقية العجائبية، والغنوصية، والروحانية، وحتى المرضى العقليين.

2 - عدنان حسين قاسم . الإبداع ومصادره الثقافية عند أدونيس . ص 80 .

3 - أدونيس . الصوفية والسوريالية . ص 32 .

يقول أندري ماسون : "العقل أسوأ عدو للروح .. كان العقل بالنسبة إلينا نحن الشبان السرياليين سنة 1924 هو العاهرة الكبيرة". ويقول كريفييل متحدثاً عن العقل "هذا المشلول الشال .. العقل يَدّس باحترامه الواقعي كل شيء"⁴ .

لقد أخذ البحث السورياتي على صعيد المعرفة ينهض على إيجاد التقاربات والتشابهات بين الأشياء والكائنات، وتحولت المسألة لديهم إلى مجرد القدرة الذهنية والنفسية على التقاط الإشارات السرية، إذ العالم كما يقول بريتون كتابة مرمزة تتطلب الحل، وهذا الحل وجده السورياتيون في ممارسة الفن الذي وحده يستطيع أن يلج إلى أسرار الكون.

"إنّ المذهب الإشراقي علّمنا أنّ العالم المنظور ليس إلا صورة لعالم سري، تجهله العلوم والفلسفات والأديان العلنية التي لا تدرس وتكشف إلا العالم المنظور مباشرة، وبين هذين العالمين توجد مراسلات، والمريد هو الذي يعرفها ويستطيع عند الحاجة أن يستفيد منها ليكتسب قدرات⁵، تمكنه من ولوج هذا العالم المجهول الذي يظل رغم كل شيء عالماً مبهماً وغير قابل للفهم.

الكشف عن عالم يظل دائماً بحاجة إلى الكشف وهذا يشير إلى تأثير الحركات الصوفية السرية في أوروبا في نشأة الشعر الحدائثي وبلورة الأسس التي يقوم عليها.

من هنا اهتمت السورياتية كثيراً بالشرق وعوالمه السحرية الغامضة، ورأت فيه كنزاً لا يفنى من علوم الطاقة الروحانية واستبطان الذات وممارسة التأمل، فالشرق هو الفضاء الذي جمع المتناقضين: الممارسة الصوفية المتعالية، وحرية الرغبة الجنسية وسعيها الملتهب للإشباع.

لكن ليس جميع الشعراء الحدائثيين بالضرورة إشراقيين أو متصوفين، "إنهم مأخوذون فقط .. بمبدأ معين، مبدأ الكشف عن مظهر العالم السري .. إنه مبدأ مستمر لكنه نادراً ما يكون مسيطراً وواعياً إلا لدى السورياتيين.

"وبدلاً من أن يقود هذا الإلهام في نهايته التي هي الغوص في المطلق غير القابل للفهم، يستخدمه الفنان لإنتاج عمل جمالي، مرتضياً بذلك أن ينتزع الإعجاب، أن يصدّم،

4 - المرجع نفسه . ص 56 .
5 - ر . م . ألبيريس . الاتجاهات الأدبية الحديثة . ص 135 .

أن يسلي، أو أن يشير الاهتمام عن طريق مشتقات محاولته: لذة الندرة، سحر اللامتوقع، وهم الحرّية، إحساس اللعب" ⁶.

وهذا ما جعل فرويد ينتقد السورالية بأنها مذهب يدعي اعتماده على اللاوعي، لكنه في الواقع عمل من أعمال الوعي، فهو أشبه بالحلم الذي نعلم ونحن نعيشه أنه ليس إلا حلماً لا واقعا.

يمكن أن نلخص ملامح مذهبهم في:

. وجوب التخلي عن غرور المنطق

. تجاوز النظرة العقلانية للواقع الظاهر

. الاستناد إلى عبثية الحلم

. إلى منطق الرغبات المكبوتة

. ضرورة العودة إلى عالم الطفولة والفطرة والبراءة البدائية.

وفي الفن تبدو ممارسة الكتابة الآلية البعيدة عن الوعي الموجه والمتحكم هي المسلك الأنسب للسورالي للكتابة، وقد حاول أندري بریتون أن يرجع العلاقات الاعتبارية للصورة الشعرية الناتجة عن الكتابة الآلية إلى مبدأ فوق - طبيعي هو مبدأ الصدفة الموضوعية، حيث ما يبدو لنا صدفة قد لا يكون كذلك بل محصلة عوامل موضوعية أدت إلى تلك النتيجة دون أن ندرك لاصدفيتها.

يبدو أنّ "التناقض الأساسي في السريالية، كما يلاحظ بريستلي، هو أنها تصطنع بواسطة العقل حالة منافية للعقل . ولقد كان السيرياليون مواجهين بخيارين : إما أن يكونوا ثوريين وإما أن يكونوا فنانين . لذلك تحوّل كثيرون منهم إلى الواقعية الاشتراكية، وبعضهم ذهبوا إلى النقيض وعادوا إلى حظيرة الدين" ⁷.

بينما أخذ بونفوا على السريالية "أنها تخلّت عن المكان، العالم الذي تنتمي إليه، باسم نظام آخر للواقع لا يتجلّى إلا بطريقة عابرة، في أشخاص متميزين، وفي لحظات امتيازية .. إنّ السورالية إذ تستسلم لجاذبية التنجيم ونزعة الإيمان بالقوى الخفية .. إنما تطرح تنوعاً مما قبل العلم سحرياً" ⁸.

ويرى بعض الدارسين في الشعر السورالي استمراراً طبيعياً لشعر المجازيب

6 - المرجع نفسه . ص 142 .

7 - شكري محمد عياد . المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين . ص . ص 198 - 199 .

8 - عدنان حسين قاسم . الإبداع ومصادره الثقافية عند أدونيس . ص 168 .

الصوفي "هناك نموذجان للمجذوب، الأول الشاعر المرتجل أو المشدوه أو المتنبي، والثاني الصّناع أي الكاتب الحاذق المتمرس الماهر المسؤول .. المجذوب هو الشاعر البدائي الكاهن الشامان الذي صرنا نسميه الشاعر الرومنسي، فالتعبيري، فالسريالي"⁹. وحتى أدونيس نفسه يقول عنها إنها "لم تنتج بوصفها حركة شاعرًا كبيرًا واحدًا في تاريخها كلّها. وجميع الشعراء الكبار تركوها في مرحلة ما .. إنها حركة أثّرت في الأفكار وفي الثقافة وفي الحساسية الشعرية من غير شك، لكنها لم تنتج أدبًا عظيمًا أو فنا عظيمًا"

10

9 - رينيه ويليك . أوستن وارين . نظرية الأدب . ص 87 .
10 - صقر أبو فخر . حوار مع أدونيس . ص 102 .